A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

عبد الفتاح ابراهيم

370.9967
J27mtA

تعليق
على مذكرة في
مستقبل التربية والتعليم
في العراق

تصحيح أخطاء

يرجى تصحيح : —

كلمة (الموضوع) بكلمة (الموضع) ص ١١ ، س :١٦

وكلمة (عميقة) بكلمة (عقيمة) ص : ١٢ ، س : ١٧

وكلمة (الحكميات) بكلمة (الختميات) ص : ١٢ ، س : ١٩

ويرجى إضافة : —

كلمة (اليها) بعد كلمة (اشار) ص : ٣٣ ، س : ١٠

L-55-15704

تعليق

على

مذكرة في مستقبل التربية والتعليم في العراق

كان قد طلب اليّ كتابة تعليق لمجلة الرابطة على (مذكرة في مستقبل التربية والتعليم في العراق) وهي كراس من القطع المتوسط باثنتين وثلاثين صحيفة مطبوع في مطبعة التفيض الأهلية، اصدره الدكتور محمد فاضل الجمالي في مستهل هذا العام (١٩٤٤).

وقد تصفحت «المذكرة» وفي عزمي أن اعد تعليقا موجزاً يفي بما يمكن نشره في باب التعليقات على الكتب في تلك المجلة. لكنني ما ان انتهيت من تلاوتها حتى بدا لي ان ليس من الحق ان تنشر في الناس مثل الآراء التي تضمنتها هذه «المذكرة» فلا تلقى غير تعليق لا يتجاوز صفحة او صفحتين ولا تحظى بما هو جدير بها من التحليل والتدقيق. ذلك انني وجدتها نموذجا من النماذج النادرة للتفكير المثالي الصرف بكل ما يعتور هذا التفكير من العلل والنقائص التي تضلل العقل وتشرد الوجدان باعتباره مناقضا للعلم؛ ومثلا تتضح فيه صلة القرابة بين المثالية والرجعية بحيث لا يبقى بعدها مجال للشك في هذا الامر الذي ما يزال كثير من الناس في ريب منه.

والمذكرة فوق هذا، تبحث في موضوع خطير يشغل بال الناس وهم يتطلعون الى المستقبل وما يقتضي من الخطط لعالم الغد. وأي موضوع اجدر بالعناية من موضوع التربية والتعليم، ذلك الأساس الوطيد لحياة الانسان في

عالم السلام والطمأنينة .

و بعد ذلك فالمذكرة كما يقول الدكتور :—

« (أ) ثمرة مطالعاتي مئات الكتب والتقارير الرسمية وغير الرسمية في التربية والتعليم وذلك عدا مطالعة المقالات العديدة في المجلات التربوية

(ب) ثمرة دراستي ومشاهدتي نظم التعليم في كل من الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا وفرنسا والمانيا والدانمركة وتركيا ومصر وفلسطين وسوريا ولبنان . ودراسة لأهم النظم والمشاكل التعليمية فى الممالك التي لم تزرها

(ج) ثمرة اتصالنا بمعارف العراق مدة خمس وعشرين سنة . »

واذن فنحن امام رسالة ليست ككل الرسائل التي تشبهها ؛ هى رسالة عظيمة الخطر في دنيا التربية والتعليم . كيف لا ؟ ومؤلفها من أساطين هذا الفن باعترافه ؛ وان شئت قل انه رجل المعارف الاوحد، فليس هنالك بعد هذا من يجرأ ان يبارى الدكتور بغزارة العلم ومدى الخبرة وسعة المشاهدة والاطلاع . ان ذلك امر تهيأ للمؤلف في مدى خمس وعشرين سنة ولن يكون هنالك دكتور كدكتورنا الا واحد في كل جيل ... وهذا وايم الحق امر يفرض علينا ان نتلقى « المذكرة » بما تستحق من العناية والرعاية ،فهي تفصح عن مجهود جسيم في مضمار البحث والتتبع والمشاهدة لرجل كان الى حد ما مسؤولا عن ادارة شؤون المعارف خلال نيف وعشر سنوات ، وتلك لعمري حقبة من الزمن يحسب لها الحساب في حياة كل امة في هذا العصر .

والرجل اليوم قد خرج من المعارف ، لكنه ما انفك — كما ارى — يترقب العودة و يتطلع الى فرصة اخرى تتاح له فيجرب فيها حظه من جديد.

واحسب انه في هذه « المذكرة » انما يريد ان يثبت كفاية ودراية انكرهما الناس عليه ، ويذكر بصلة يصر اصراراً عجيباً على وجوب دوامها حتى لا تكون قطيعة من غير عودة . وربما يكون في هـذا على حق . فمن واجب الناس ان ينصفوه وان يتدبروا امره وامرهم . فان وجدوه على حق وفيه الكفاية التي ينشدونها وغابت عن اذهانهم ذكريات الماضي القريب الطويل ، فعليهم ان يجيبوه الى سؤله بان يضموا اصواتهم الى صوته . وان تحققوا خـلاف ذلك فاليحذروا امرءاً يترقب الفرص ولا يقنعه ما اقنع الناس .

وليس هنالك شك في ان الرجل نصيبا وافرا من الجرأة . فهو حين يزعم ان صلته بالمعارف تبلغ من العمر ربع قرن يذكر ذلك بصدد التنويه بسعة اطلاعه في شؤونها ليس الا . لكنه وهـو يبحث ويحلل ويعلق يضرب صفحا عن هذه الحقيقة المرة بجرأة نادرة حقا . فكأنه يريد ان يطوي الناس صفحة الماضي ويفسحوا له المجال لصفحة جديدة بيضاء ناصعة لا تتصل بذلك الماضي في كثير ولا قليل . ولكن هيهات ! فالمرء ان استطاع ان يقول الجديد على حين غرة فالمدفون في الطباع لا يلبث ان يبرز من بين السطور يستنكر الجحود ويفضح المكنون . والواقع ان وجهة النظر التي انبعثت عنها الآراء التي وردت في « المذكرة » ما تزال — كما يبدو لي — منطوية على كثير من الاسس المغلوطة بالرغم مما بذله الدكتور من الجهد والحذر في صياغتها واخراجها . وانه ليؤسفني حقا ان ارى مثل هذه الآراء المضطربة تبدو من جديد لتبث الارتباك في صفوف الشباب العراقي وتضيع الجهود — كما اضاعتها في الماضي — فيعود ذلك على البلاد بالضرر البالغ مرة اخرى ويعرقل سبيل تكوين خطة

مستقيمة جريئة في الحياة العامة لشباب العراق ـ مناط الامل وموطن الرجاء.

ومبعث العيب فيما انجر اليه الدكتور هي المثالية . المثالية كوجهة نظر في الحياة وكطريقة في التفكير وكمطية للرجعية .ولعل الجدير بي قبل البدء في مناقشة « المذكرة » ان اصرح للقاريء بطبيعة موقفي . فانا احاسب رجلا ولست على رأيه من حيث الاساس . بل واست محايداً تجاه رأيه . فهو في رأيي يذهب مذهب المثالية الصرف ويأخذ باساليبها . وانا انفر من المثالية واستنكر طرائقها في التفكير والتعليل والتعبير عن الحقائق ومظاهر الحياة وارى انها تهيء المناطيد لشياطين الانس يرتفعون بها فوق رؤوس الناس فيظلونهم سواء السبيل ويجرّونهم الى مهاوي الرذيلة ويورطونهم فيما هو شر عام لقضاء وطر خاص .

وانا فوق هذا ، اعرف الرجل الذي اناقشه معرفة شخصية،ولي بالمعارف صلة وعندي بعض العلم عما كان من امرها ، فلست اذن من المحايدين باية حال لأن لي رأيا خاصاً . ولذا فان موقفي في الحقيقة موقف الذي يعرض قضية ويحتكم للقاريء في امر يجب ان لا تكون عناية القاريء فيه دون عناية الكاتب . واني مقدر موقفي هذا ومحتاط من الزلل فيما هو خارج عن الصدد، ولكنني معتقد في الوقت عينه ان تعارض الآراء من مستلزمات استجلاء الحقائق وضرورات الوعي الاجتماعي في الشؤون العامة وان الاشخاص وان بدا انهم مدار الموضوع الى حد ما ، لكنهم في الواقع عرض ثانوي بالنسبة للحقائق التي يجب ان تنكشف للجمهور في امور حياتهم العامة .

وقوام مناقشتي لمذكرة الدكتور ادعائي : اولا ، بانه لم يسلك في معالجته

لموضوع مستقبل التربية والتعليم في العراق طريقة البحث العلمي الواقعي وانما سلك سبيل المثالية الصرف التي تزخرف الاوهام وتشوه الحقائق فتضلل الناس . وثانيا ، ان هذه المثالية هي مطية الانتهازيين وحليف الرجعيين تبرقع اغراضهم وتبرر اخطاءهم واضاليلهم وتحميهم من محاسبة الناس لهم على مايقترفون من آثام ولا سيما في هذا الزمان . وثالثا ، ان خطر المثالية لا ينتهي عند هذا الحد وانما هي ، حين تنشيء قصوراً في الهواء وتضع خططاً مغلوطة ليس وراءها طائل ، تشغل الناس عن اتخاذ العلاج الناجع للمشاكل الاجتماعية التي تجابههم وتضيع جهودهم في العبث وتسمم نشاطهم وحيويتهم بالمخدرات وتدفعهم للسعي وراء السراب .

وقد اتخذت من مذكرة الدكتور مثلا لاثبات آرائي بايضاح خطل الحلول الاجتماعية التي تنشأ على اساس المثالية وما ينجم عنها من الاضرار ، والكشف عن التباين بينها وبين الخطط التي تقوم على اسس التحليل العلمي الواقعي .

والمثالية طريقة في التفكير اخذت بها الفلسفة القديمة في تفسير ظواهر الحياة وتعليلها باعتبارها مرسومة على نمط مثل عليا فكرية مبعثها الروح ، فهي تبدأ اولا بالتفريق بين الافكار والموجودات وتفترض ان هنالك عالمين : عالم الروح والفكر وعالم المحسوس والمادة . وتفرض ان العالم الاول ـ عالم الروح والفكر ـ هو الموجود وهو الاصل ، وان العالم الثاني ـ عالم المحسوس والمادة ـ صورة للعالم الاول ولا وجود له في الحقيقة الا كظل وصدى . وتزعم اننا نفكر لان فينا شعاعا من روح . وبما اننا نفكر فنحن نحس الموجودات التي لا وجود لها لولا الفكر الذي تصورها . فكل ماهو موجود ـ باعتبار المثالية ـ

انما وجد بوجود الفكر الذي ابدعه . والفكر يبدع المثل ، وهذه المثل هي الحقيقة الموجودة التي تنبعث عنها الصور المحسوسة للكيان المادي . فهي بمنطقها هذا اذن تنكر حقائق الواقع كحقائق اصلية وتزلزل أسس البحث العلمي الذي يتناول حقائق الواقع كحقائق قائمة بذاتها تقاس وتعين في حدود الزمان والمكان.

هذه خلاصة موجزة جداً عن المثالية قد تفي بغرض ما نحن في صدده من مناقشة « مذكرة » الدكتور الجمالي ، وسيلمس القارىء دلائلها فيما اورده الدكتور من آراء ، واثرها في جعل هذه الآراء بعيدة عن الحقيقة والواقع ومدعاة الى الزلل والضلال .

***

والآن فلنبدأ بنقد مذكرة الدكتور . ولنتجاوز عن « المقدمة » موقتا الى الصحيفة الثالثة حيث يبدأ الأصل . ولن يطول بنا البحث . فهذه هي الفقرة الثانية تبدأ بالعبارة الآتية : «من الامور المسلمة تقريبا كون علة العالم في الوقت الحاضر ناجمة من عدم مماشاة الحياة الروحية والاخلاقية للتقدم العلمي الميكانيكي . أي أن البشرية قد تقدمت في ميدان العلوم والمخترعات قبل ان تستعد نفسيا وخلقيا للتصرف بالقوة الهائلة التي نتجها العلم في سبيل الخير العام » .

ما اجمل هذا التفكير المنطقي البديهي . ان كثيراً من العامة يعرفونه كما يعرفون الحية من رسمها . فهكذا لقنوا منذ عهود تمتد الى الماضي البعيد . ولكن الحقيقة ان هذه العبارة تنطوي على كل ماينا قض العلم والواقع . ومن بين سطورها يشخص شبح المثالية بهيكله الكامل . أفليس ما لها ان للانسانية

حياة روحية واخلاقيه مستقلة عن العلم وعن التطور الآلي ؟ والا فكيف يمكن ان يقوم تقدم علمي ميكانيكي فلا يماشيه تقدم نفسي (روحي) اخلاقي اذا لم يعتبر كل منهما مستقلا عن الآخر . ان أثر المثالية في هذه العبارة ظاهر لا ريب فيه . فلنمتحن المثالية فيها اذن، لنرى مقدار نصيبها من الصحة اولا .

ان مآل هذه العبارة هو ان التقدم العلمي الذي انتج الكتب والصحف ووسائل التثقيف الحديثة كافة وينتج الآلات التي يصنع الانسان بمساعدتها من البضائع والخيرات ما يفيض على الانسانية بالخير الوفير ، هذا التقدم الآلي الذي حققه العلم فاعان الامم في الخروج من ظلمات القرون الوسطى وساعد على ذلك خصون الاقطاع وربط اجزاء المعمورة بعضها ببعض ، وساعد ايضا في نشوء القومية وتمهيد السبيل لتقدم الدمقراطية وتوطيد الصلات بين الشعوب ، هذا التقدم العلمي — الميكانيكي كما يصفه الدكتور — تعتبره المثالية مبعث ويلات الانسانية ومصدر شقائها لانه آلي مادي ومن صنع يد الانسان الوضيع الذي عجز عن مسايرته بروحه وخلقه .

وماذا يقصد الدكتور يا ترى بالتقدم العلمي الميكانيكي ؟ ايقصد ان هنالك تقدما علميا ميكانيكيا منفصلا عن تقدم العلوم ؟ أم يقصد ان العلم في جوهره ظاهرة ميكانيكية تميزا له عن الظواهر التي ينعتها بانها روحية واخلاقية ؟ ، وهل هنالك يا ترى نواح في الحياة علمية ميكانيكية خالصة ، ونواح روحية واخلاقية ، مستقل كل منها عن الآخر ومعارض له كما يفهم من عبارة الدكتور ؟ اذ المعلوم ان العلم في جوهره انما يرمي الى اكتشاف وتعيين خصائص القوى والعناصر الطبيعية والتثبت من القوانين التي تضبط هذه

الخصائص والعناصر لينتفع الانسان بعلمه بها في سبيل تحرير نفسه وترفيه حياته . فهل يرى الدكتور في العلم غير ذلك ؟ هل يرى ان العلم في جوهره ميكانيكي لا يستهدف الكشف عن اسرار الطبيعة لتحرير الانسانية من عبودية الجهل بهذه الاسرار ؟ ثم ألا يكون العلم بهذا الاعتبار ، عاملا من عوامل الحرية بحكم الضرورة ، ذا اثر كبير في ترقية النفس والاخلاق ؟

ومع ذلك فاين موطن الضعف في التقدم العلمي الذي يصفه الدكتور بالميكانيكية ؟ اهو في ابداع آلات تتحرك بالبخار والكهرباء وتيسر للناس اسباب العلم والمعرفة وتفيض عليهم بمستلزمات الحياة الراقية ؟ ام هو في رجال هذا التقدم العلمي (الميكانيكي) امثال جيمس وات وليفنجستون واديسون وكورى واضرابهم لانهم نجحوا في ميدان العلم (الميكانيكي) واخفقوا في ميدان الروح والاخلاق ؟ ام هو في الجماهير العاملة التي خرجت الى العالم الحديث من اقباء القرون المظلمة فتولت ادارة مصانع التقدم العلمي (الميكانيكي) والعمل فيها وراحت تكسب اليسير بالجهد الجهيد ؟ اهذه الجماهير هي موطن الضعف لان لها شخصيتين مستقلتين احداهما ضربت في عالم المادة بسهم وافر والاخرى اخفقت في عالم الروح والاخلاق ؟ ام موطن الضعف بل موطن الداء في نظام يوجه الناس بالمثالية المظللة الى صنع المدفع بدل الزبدة والى تدمير العمران بدلا من اعمار الخراب ؟

لنترك الامر عند هذا الحد على ان نعود اليه ، ولنتقدم الى مناقشة الموضوع من ناحية اخرى . يقول الدكتور في عبارته الآنفة الذكر ان « علة العالم في الوقت الحاضر ناجمة عن عدم مماشاة الحياة الروحية والاخلاقية للتقدم

العلمي الميكانيكي، أي أن البشرية تقدمت في ميدان العلوم والمخترعات قبل أن تستعد نفسياً وخلقياً للتصرف بالقوة الهائلة التي نتجها العلم في سبيل الخير العام ». ومن عبارته هذه يتبين أنه يقر بأن شيئاً من التقدم قد حصل فعلاً في الناحيتين النفسية (الروحية) والخلقية ، إلا أن هذا التقدم لم يكن متناسباً مع التقدم الحاصل في العلوم (الميكانيكية) . والواقع أننا لا نستطيع أن نتصور أن الناس في حياتهم الحاضرة على علاتها أحط نفساً وخلقاً مما كانوا عليه في عهود الجهالة الغابرة . فمن أين جاء هذا التقدم الروحي والخلقي؟ أتراه جاء من مصدر مجهول أم أنه نشأ عما تحقق للناس من تقدم مادي وفكري ولده تقدم العلوم كافة ؟ وهل في المستطاع أن نتصور تقدماً علمياً يؤدي الى تقدم مادي في أسباب الحياة ولا يكون مصحوباً وملازماً لتقدم فكري ونفسي وخلقي ؟ وإذا كان التقدم العلمي يؤدي بالضرورة الى تقدم في الفكر والأخلاق فكيف إذن نستطيع أن نقول « أن البشرية تقدمت في ميدان العلوم والمخترعات قبل أن تستعد نفسياً وخلقياً للتصرف بالقوة الهائلة التي نتجها العلم » ؟ وكيف يا ترى نعد الناس نفسياً وخلقياً قبيل كل تقدم في ميدان العلم والمخترعات ؟ أيكون ذلك بتأسيس دورات صيفية أم شتوية للاعداد الروحي والخلقي ؟ أم ماذا ؟ ! ! ولو تسنى لنا ذلك فمن أين نأتي برجال التربية والتعليم ليعدوا الناس الى هذه المراقي الروحية الأخلاقية ؟ ورجال التربية والتعليم يعيشون، بلا ريب ، في المجتمع الذي يعيش فيه سائر الناس ويستمدون آراءهم، بلا ريب أيضاً ، عن طريق هذا العلم (الميكانيكي) وعن المحيط الاجتماعي الذي يحيون فيه وهو متأثر بالعلوم (الميكانيكية)

كذلك . فما السبيل اذن لرفع مستوى الناس الروحي والخلقي ؟ قد يرد الى الذهن ان ذلك يتحقق عن طريق زيادة العناية بالتربية النفسية والخلقية ، وربما يعلم الدكتور اكثر مما يعلم سواه ، ان رجال هذه التربية ـ حتى ولو جاءوا من عالم غير هذا العالم — لا يستطيعون ان يفعلوا غير الذي يرتضيه المهيمنون على شؤون الحياة العامة ، وهؤلاء المهيمنون لا يطمئنون الى غير التربية النفسية والخلقية التي تتعهد صيانة مصالحهم وتضمن لهم الاستقرار على الحال التي يرتضونها . فكيف السبيل اذن للخروج من هذه الدائرة التي حبستنا فيها المثالية ؟

وقد يخطر على البال — في هذا الصدد ايضا — انه لو كان كل تقدم مادي في اسباب الحياة يرافقه تقدم نفسي وخلقي ناشيء عنه ومنسجم معه فكيف نعلل هذا التدهور الروحي والخلقي في النازية التي تقوم في بلد بلغ الأوج في تقدمه العلمي (الميكانيكي) ؟ ان هذا الامر قد يبعث الحيرة في الذين يفكرون على اسلوب المثالية فلا يرون سبيلا الى تعليله بغير السبيل الذي سلكه الدكتور الجمالي والذي يؤدي الى الحبس في دائرة من التفكير لا مخرج منها كما رأينا . على ان الامر يكون ميسوراً لو فكرنا فيه بطريق التحليل الواقعي . فالتقدم العلمي الذي يراه الدكتور بيت الداء قد جر الناس فعلا الى طريق الحرية — الحرية في اوسع معانيها ومنها الحرية الاقتصادية . ونزعة الناس الى الحرية — الحرية التي هي في الوقت عينه من مقومات التقدم النفسي والاخلاقي ومظاهره — بعثت الرعب والفزع في نفوس المهيمنين في المجتمع من رجال رأسمالية الاحتكار بوجه خاص ، الذين

لا يروق لهم، بطبيعة مصالحهم ، تحرر الناس من نير استغلالهم وعبوديتهم . وبكلمة اخرى ان التقدم العلمي الذي هيأ للجماهير سبل الوعي والحرية ، اوجد تناقضا متزايداً بين مطاليب هذه الجماهير المتبرمة وبين مصلحة الاقلية المستغلة المتحكمة في شؤون المجتمع . وهذا التناقض الذي اشتد حتى انقلب الى خطر محدق بالرجعية الالمانية هو الذي دفعها، على وجه التحقيق ، الى اللجوء الى نظام النازية — النظام المتبرقع بأباطيل المثالية الخداعة الماكرة ، والذي يقوم، في حقيقته ، على ابشع انواع الاستبداد وافضع ضروب الهمجية .

وقد كان طبيعيا ان تلجأ الرجعية الى المثالية — كما هو شأنها دائما — تستمد منها العون لاشغال الناس بالتطبيل والتزمير لمثل سخيفة وهمية كالعنصرية والغرور القومي ، فتصرفهم عن التفكير بالداء الذي هو مبعث شقائهم وتعاستهم الى استنزاف قواهم وحيويتهم بالاستعدادات العسكرية للاعتداء على الشعوب الاخرى . ثم تخدعهم من جهة ثانية ، بان العلة فيما يرزحون تحته من البلاء انما سببه ان الشعوب لم ترق روحيا وخلقيا بحيث تستطيع ان تدبر شؤونها بنفسها « وتتصرف بالقوة الهائلة التي اوجدها التقدم العلمي الميكانيكي » . وهكذا تستقر عبارة الدكتور الجمالي في الموضوع الذي يلائمها و يليق بها . وهكذا ينجر الدكتور من حيث لا يعلم الى الطابع الفكري الذي يريد ان يتجنبه بما يبديه في كراسه من الحماس للدمقراطية والى خطط الامم المتحدة .

ولننظر الآن الى عبارة الدكتور من زاوية اخرى . فهو يقول « ان

البشرية قد تقدمت في ميدان العلم والمخترعات قبل ان تستعد نفسيا وخلقيا للتصرف بالقوة الهائلة التي نتجها العلم في سبيل الخير العام ». وما أن هذا القول ان هنالك بين العلم والمخترعات و بين النفس البشرية والاخلاق ثغرة يجب ان تسد وذلك بان يبلغ التقدم الروحي والخلقي مستوى التقدم في العلوم . فهل ذلك يعني ان تقدم العلوم (الميكانيكية) يجب ان يتوقف او يتباطأ في سيره حتى يلحق به التقدم الروحي والخلقي ؟ وكيف السبيل الى ذلك ما دمنا نعترف بان التقدم الروحي والخلقي قد عجز عن مماشاة تقدم العلوم (الميكانيكية) وما دامت الظواهر كلها تشير الى ان سرعة التقدم في هذه العلوم تتزايد باطراد ؟ وعلى هذا فاننا اذا سلمنا جدلا بوجود فاصل بين تقدم العلوم والتقدم النفسي والخلقي نكون قد جابهنا نتيجة محتومة لا مفر منها وهي ان الثغرة القائمة الآن — على رأي الدكتور — بين التقدم الروحي والخلقي و بين التقدم العلمي ستزداد اتساعا بشكل يؤدي الى تضاؤل العوامل الروحية والاخلاقية امام جبروت العلوم (الميكانيكية) التي ستكون مطلقة السلطان في حياة الانسان تفعل به ما تشاء . ألا ويل للمثالية ، انها رفيق غير مأمون الجانب . فقد تعلق بها الدكتور وهاهي للمرة الثانية تؤدي به الى حيث يكره ان يكون . فالدكتور الجمالي يتطير من المادية الميكانيكية — وهي في الواقع فلسفة عميقة لانها تنكر قيمة الانسان الفكرية والروحية وتجحد فضله في توجيه الحضارة وتعلل الحوادث تعليلا ميكانيكيا صرفا قائما بسلسلة من الحكميات المتتالية المقيدة باوليات ونتائج غير قابلة للنمو والتطور . ولكن هاهو الدكتور ينقاد اليها من حيث لا يعلم.

والحقيقة ان الحياة وحدة لا تتجزأ، تقوم فيها العوامل النفسية والاخلاقية الى جانب العوامل الاخرى التي تؤثر في الحياة الاجتماعيـة وتقيم كيانها. وهذه العوامل ، سواء منها الاقتصادية او السياسية او الاخلاقية ، تتفاعل باستمرار وتحمل الحياة الاجتماعية دوما على التقدم في ميدان التطور . ولهذا كان لزاما أن يرافق كل تقدم في الناحية العلمية تقدم اخلاقي ونفسي ملازم له ومتناسب معه ومتولد عن تبادل التأثير بين الانسان والعوامل المادية المحيطة به . وان بدا للدكتور ان هنالك ثغرة بين تقدم العلوم (الميكانيكية) والتقدم الاخلاقي والنفسي فقد خدعته المثالية ، لان هذه الظاهرة ما هي الا مظهر لتفاعل بين متناقضات اجتماعية رجعيـة وتقدمية يساهم فيه الانسان المدرك . وان فازت الرجعية في هذا الصراع بنصر فانه نصر موقوت لانه ينافي منطق التطور . فللرجعية ، كما يعلم الدكتور، قوة لا يستهان بها ، لـكن عناصر الخير والحرية في الانسان — القائمة على ادراكه النامي — هي، على وجه اليقين، اشد واقوى، لان مقومات التطور وفي مقدمتها تقدم العلم واتساع الادراك تقف الى جانبها بالضرورة وتؤدي بها الى النصر النهـائي المحقق . وان في ذلك لدليلا على ان التقدم النفسي والخلقي مساير دائما لتقدم العلوم وملازم له .

***

ولاجل ان نتبين الصلة الاصلية بين المثالية والرجعية علينا ان نعين مدلول الرجعية كما نوهنا بمدلول المثالية من قبل . واول ما يقتضي الاعتراف به لتعيين مدلول الرجعية هو التطور الاجتماعي. فهل نحن مؤمنون بان المجتمع كيان متطور أي انه كيان تنمو فيه عناصر الحياة الاجتماعية سـعة وعمقا؟ ان غاية المجتمع هي الحياة الرافهة ، الحياة التي تتوافر فيها الاسباب لسد حاجات

الانسان المادية والنفسية وتهيأ فيها الوسائل اللازمة لمواصلة التطور والارتقاء. وبعبارة اخرى ، ان غاية المجتمع هي الحرية بمعناها الواسع الذي يشمل التحرر من الخوف والعوز والجهل ، والتمتع بحرية الرأي والاجتماع وتحقيق الشخصية وتنمية الملكات الفردية . وهذه الحرية هي، بلا ريب ، المحور الذي تقوم عليه الحياة الاجتماعية ، وهي خير مقياس يقاس به مدى التقدم الاجتماعي وتتجلى فيه معالم التطور . فهل ان تحول حياة الانسان من ادوار الهمجية الى الحياة القبلية ومن حياة القرون الاولى التي قامت على الرق وحياة القرون الوسطى التي قامت بالاقطاع وما بلغه الانسان في الوقت الحاضر يؤيد هذه الحقيقة وهي ان المجتمع كيان متطور يتقدم نحو الحرية وتحقيق الحياة الراضية ؟ وهل ان الحرية في الحياة العامة زادت سعة وعمقا بتطور المجتمعات وارتقائها فاتسع مدلولها ومضمونها وازداد عدد الذين يتمتعون بنصيب منها في كل مجتمع ؟ وفي رأيي ان الجواب على هذين السؤالين على ضوء الحقائق التاريخية الثابتة لا يمكن ان يكون الا بالايجاب . وعلى هذا الاساس يعتبر المجتمع كيانا متطوراً و يعتبر التطور سنة الحياة الاجتماعية .

على ان الحرية الاجتماعية لا تنمو ولا يتسع مداها ولا يزداد عمقها بصورة ذاتية وحتمية ، وانما هي تنمو وتتسع بتفاعل العوامل الاجتماعية (الاقتصادية والسياسية والعلمية والاخلاقية والفنية وغيرها) التي يساهم الانسان فيها بقسط وافر . والناس في كل مجتمع فريقان: فريق رجعي وفريق تقدمي . اما الاول فانه مؤلف اصلا من اصحاب المصالح الثابتة الذين تتطلب منفعتهم ان يبقى النظام الاجتماعي على ما هو عليه ، ويطلق عليهم اسم الرجعيين

لأنهم في محاولتهم شل عوامل التطور يعملون على جر المجتمع الى الوراء وهو من طبيعته التقدم الى الأمام . وأما الفريق الثاني فانه يؤيد عوامل التطور ويساند قوى التقدم لأنها تؤدي به الى نيل حريات هو بحاجة إليها وتسبغ عليه نعماً جديدة يتوق إليها .

وإذ تقف العوامل المادية — وفي مقدمتها قوى العلم والتقدم الآلي — بجانب التقدميين وتؤيد دواعي الحرية والنمو وتجر الى ميدان نشاطها ومستلزماتها عدداً كبيراً من الناس تشجع فيهم روح الوعي واليقضة وتوسع مداركهم كلما إزداد تعاملهم بهاومارسوا انتاج مصنوعاتها وألموا بدقائقها ، نجد الرجعيين يميلون بطبيعتهم الى التشبث بالمثالية ويحاولون تقييد العلم والتقدم الآلي وتشويه حقائقهما وزعزعة عقيدة الناس بهما وحملهم على التطير منهما باعتبارهما خطراً يحيق بالانسان ويتهدد حياته بالتدمير .

ولما كانت المبادئ التقدمية تنطوي على مصلحة الأغلبية لأنها تستهدف توسيع مدى الحرية وتعميم منافع التقدم لعدد متزايد من الناس فالتقدميون يميلون بطبيعتهم الى الاعتقاد بأن أغلبية الناس تنحو نحو الخير العام وتحمل عناصر التقدم والحرية وأنها لا يمكن أن تكون إلا مبعثاً للخير العام لأنه في مصلحتها ، وعلى هذا فالتقدميون إنسانيون ديمقراطيون ولا يمكن أن يكونوا غير ذلك .

وعلى عكسهم الرجعيون ، فلأنهم في الأقلية دوماً فأن من مصلحتهم أن يزعزعوا ثقة الانسان بنفسه ويروّجوا آراء مآلها أنه شرير بطبعه وأنه أحط نفساً وخلقاً مما يجب أن يكون ، ولهذا فانهم يميلون الى المثالية لأنها تيسر

لهم التعبير عن هذه الآراء التي لا يؤيدها الواقع و ينكرها العلم . فهم إذن ليسوا ديمقراطيين ولا يمكن أن يكونوا إلا كذلك.

وبينما يحاول التقدميون أن يعالجوا مشاكل الحياة العامة بمعالجة العوامل المادية الملموسة التي هي، بتحقيق العلم ، مبعث هذه المشاكل ومدارها، نرى الرجعيين، على العكس، يتشبثون بالمثالية ومعمياتها الى إشغال الناس عن مواطن الداء بارجاع مشاكل الانسان الى عوامل أخلاقية وروحية وأمراض معنوية يزعمون أن الانسانية بمجموعها مبتلاة بها . وهم لهذا دكتاتوريون بطبيعة مصالحهم ووضعهم ومنطقهم المثالي الذي يخلق الزعماء المطلقين المستبدين كما يخلق الأفكار المطلقة الجزمية .

وإذ نرى التقدميين ، والعلم الى جانبهم وهو في عونهم ، يعتقدون بأن الكيان الاجتماعي كيان موحد ، عوامله متلازمة وتأثيرها متبادل ، نرى الرجعيين على النقيض من ذلك يفرقون عوامل الحياة الى روحية ومادية ومن ثمة يفترضون تحكم العوامل الروحية لأنها في هذه الحالة تكون خارج متناول العلم عدوهم اللدود ويكون المجال لهم واسعاً يعبثون بآراء الناس كما يشاؤون و يروجون الأضاليل والأباطيل كما يشتهون .

والتقدميون بالتزامهم قواعد العلم وضرورات التدرج يضعون خططاً قد تكون متواضعة ، لكنها ممكنة التطبيق لأنها تجاري أحكام الزمان والمكان. وهم إذا وضعوا خططاً بعيدة المدى فانهم يظهرون للناس مستلزماتها المادية أولاً ، وما يجب أن يبذله الناس لتحقيقها على كل حال . أما الرجعيون فقد يضعون خططاً واسعة النطاق ولكنهم لا يتقيدون، باسلوبهم المثالي، بزمان

أو مكان ويتهربون من تبيان السبيل الى تطبيق هذه الخطط لانهم إنما يعنيهم في الحقيقة إشغال الناس بالأوهام وليس في مصلحتهم على أية حال الاشارة الى ما ينطوي عليه العمل على تطبيق هذه الخطط من إجراءآت أو مقدمات اجتماعية ضرورية لتحقيقها .

تلك هي الرجعية كالبخيل الخسيس تعبد المادة وتعيش للمادة ولكنها تتغنى بالمثل والأوهام وتتظاهر بالفضائل وتحيا حياة كلها رعب من الناس ومن العلم ومن الحرية ، فتتطير منها جميعاً وتبدو لها كأشباح خطرة تنقض مضجعها فتنقم عليها وتود لو استطاعت أن تنقض عليها وتزيل معالمها من الوجود ، ولكنها وهي تطوي في احشائها كل هذه النقمة تتملق الناس والعلم والحرية باسلوب غريب عنها هو أسلوب المثالية . ولذلك كانت المثالية دائماً ، سلوى الرجعية واسلوبها في تضليل الناس وتشويه حقائق الوجود والحياة . فلننتظر إليها الآن في مذكرة الدكتور محمد فاضل الجمالي وهي تصوغ خطة لمستقبل التربية والتعليم في العراق .

يقول الدكتور في مستهل مقدمته : « فهذه الحرب الطاحنة ما هي إلا نتيجة لأمراض مادية ومعنوية بليت بها الانسانية منذ زمان بعيد » . ومع أن هذه العبارة — وهي مصوغة باسلوب المثالية الذي أشرنا إليه — لا توضح لنا كنه تلك الأمراض واعراضها ومباعثها لكنها تقرر امراً واحداً هو ان الانسانية مريضة . وحقيقة هذا الأمر الذي تطرب له الرجعية فى كل مكان وزمان هو ان الناس مخطئون حين يلقون تبعة الحرب على هتلر والنازية القائمة على رأسمالية الاحتكار او على الرجعيين الذين يوالون هتلر وطغمته

والذين دأبهم الدس والتآمر من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، ذلك لأن المسؤول عن هذه الحرب الطاحنة إنما هو الانسانية المريضة . ليس هذا فقط ، وإنما هذه الانسانية المريضة تحتاج الى اطباء وجراحين . وقد اخطأ الدكتور حين جعل اسرة التربية والتعليم في مقدمة هؤلاء الأطباء والجراحين ما دام رجال التربية والتعليم معرضون لنفس هذه العلل والأمراض المادية والمعنوية وقد يكونون بحاجة ماسة الى تعقيم وتطهير ايضاً . فلنترك إذن هذا الأسلوب المثالي في التفكير يصل الى نهايته المنطقية وتلك هي : ان الأمة او الانسانية إذا كانت مريضة فطبيبها الماهر هو الزعيم (فوهرر) او قل مجموعة من الزعماء قد يكونون من اسرة التربية والتعليم وقد يكونون من زعماء الاقطاع او من رجال رأسمالية الاحتكار . انها الدكتاتورية اذن ، عشيقة الرجعيين ورفيقة المثالية اولاً وآخراً . هذه هي المرة الثالثة التي تورط المثالية الدكتور الجمالي في امر خطير يريد ان يبرأ منه بكل ما اوتي من حول وقوة .

والزعم ان الانسانية عليلة وانها تحتاج الى من يداويها زعم قديم استوحته الرجعية من المثالية في مختلف الأدوار وبأشكال شتى . ومثله الزعم بأن « علة العالم في الوقت الحاضر ناجمة عن عدم مماشاة الحياة الروحية والأخلاقية للتقدم العلمي الميكانيكي » . فقد قيل قبلاً ان الانسان شرير بطبعه ولهذا وجب ان يحكم بالاستبداد الرشيد . واليوم يقال ان تقدم العلوم (الميكانيكية) او التقدم العلمي قد ترك وراءه الاخلاق والروحيات وبذا تعرّض الانسان لخطر جسيم وأصبح من الضروري أن يضبط هذا الانسان الشارد في بيداء الضلال بضوابط الدكتاتورية من الطراز الاخير .

ترى لماذا نلجأ الى التعميم المبهم فنزعم ان « هـذه الحرب الطاحنة ما هى الا نتيجة لامراض مادية ومعنوية بليت بها الانسانية منذ زمان بعيد » ولا نقول انها حرب دبرتها زمرة مارقة رجعية ساقت الناس الى صنع المدفع بدلا من صنع الخيرات التي تحتاج اليها الانسانية ؟ لماذا نقول ذلك ولا نقول ان الحرب من تدبير الرجعية الاستعمارية الرأسمالية التي تقتضي مصالحها ومطامعها اندلاع مثل هذه الحرب الطاحنة ؟ السنا حين نقول ما يقوله الدكتور نمالي، الرجعية وننذر الرماد في العيون ؟

لقد تحقق للانسانية تقدم علمي هائل يستطيع ان يوفر للناس ما يحتاجون اليه من اسباب الحياة وينقذهم من شرور واوصاب لا حد لها . على « ان الحياة البشرية اليوم فيها من التعاسة والبشاعة — كما يقول الدكتور — ما يجعلها دون المستوى الحيواني في كثير من الحالات » فمن المسؤول عن ذلك ؟ اليست هي الزمرة المسغلة الرجعية التي افسدت على الناس حياتهم وشوهت معالم الحضارة ؟ فلماذا نعم اذن ، المسؤولية ولا نقصرها على المسؤولين فعلا ؟ اليس الاجدر ان يعين المسؤول بالذات ليمسك منك اليد حتى لا يبقى مجال لان ينخدع الناس بالذين يتياكون على الحرية والخير العام متسترين وراء العبارات المثالية الغامضة المزخرفة وهم في الواقع ، قد وضعوا يدهم بيد الرجعية وتفننوا في خدمتها وسخّروا لها كل ما يملكون من معرفة شوهاء ؟

***

و بعد هذا كله يتقدم الدكتور الحمالي الى وضع الاسس لخطته في التربية والتعليم فيقول : « فكل تفكير في مستقبل التربية والتعليم يجب ان يأخذ

هذه الحقائق بنظر الاعتبار وان يضع فلسفة جديدة للعالم الجديد تكون متزنة في تركيبها شاملة في محتوياتها .

«والفلسفة التي يحتاج اليها العالم الجديد و يغذيها تراثنا القومي ترتكز على دعائم ثلاث : (١) الايمان ، (٢) العلم ، (٣) الفن »

وهكذا اعطى الدكتور كل ذى حق حقه . فالايمان للاخلاق . والعلم للعمران . والفن للروح . وهكذا ابدع الدكتور فلسفة جديدة بعض الجدة، اذ حوّر اصول التربية الاغريقية العريقة في القدم واخرجها بحلّة جديدة. وكانت تربية الاغريق المثالية « ترتكز على دعائم ثلاث » ايضا وهى العلم لتقويم النفس والرياضة لتقويم البدن والموسيقى لتقويم الروح . وهذه التربية وهى «متزنة في تركيبها شاملة في محتوياتها» كانت في عرف الاغريق قوام الانسان الكامل . ولست اريد ان ازعزع اتزان هذه الصورة الجميلة التي رسمها الدكتور لتربية المستقبل ، فهي على الرغم من جدتها صورة مألوفة يرسمها المثاليون وهم ينظرون الى الحياة من بين زخارف البروج العاجية الزاخرة بالكتب والمطالعات !

فلنترك هذه الصورة ولنمعن النظر في التفاصيل. واول ما يلفت النظر بعد هذا ، مائدة طريفة زينها الدكتور بكل ما لذ وطاب من اصناف الايمان .

فالايمان اولا ، ايمان «بالقصد الكوني » اي ايمان « بان الكون يسير وفق قوانين طبيعية ونظام عام وان اجزاء الكون متفاعلة بعضها مع بعض مترابطة » وايمان « بالعلاقة بين الانسان باعتباره كائنا فعالا في هذا الكون وبين خالق الكون الاعظم » . هذه هى الصفقة الاولى من الايمان وقد

ربحها الدكتور دون ريب ، واثبت ،فوق ذلك ،انه صياد ماهر ، فقد اصاب ثلاثة عصافير بحجر واحد . فالقصد الكوني يرضي جهة خاصة . والقوانين الطبيعية والنظام العام والاجزاء المتفاعلة والكائن العجيب قد يرضي العلماء المؤمنين والملحدين في آن واحد . والشطر الاخير من الايمان لعامة المؤمنين.

وهنالك بعد هذا « الايمان باخوة البشر » و بـ « التآخي الطبيعي بين الامم » و« الايمان بان لا فضل لامة على اخرى الا بما تقدمه للمجموعة الانسانية من خدمات » و « الايمان بان لامتنا شخصية ذات مواهب ومزايا علينا ان نستثمرها لخير الانسانية جمعاء » و« الايمان بان للفرد قيمته الروحية وقدسيته المعنوية » . ولست اريد ان اعلق على جمال هذه المائدة المنسقة ولكني اتساءل هل يوجد انسان لا يستطيع أن يسد رمقه من اصناف هذا الايمان الذي وضعه الدكتور على هذه المائدة للجميع ؟

و بعد هذا يقول الدكتور « ان هنالك تلازما طبيعيا بين الايمان بالله والقومية البنائية الايجابية والدمقراطية والعدل الاجتماعي» . فهلا يرى الدكتور في ذلك شيئا من الغلو في الايمان ؟ اذ هل يحرم من نعمة الايمان بالله كل من جهل « القومية البنائية الايجابية والديموقراطيه والعدل الاجتماعي » ؟ وهل لم يكن ايمان بالله قبل ظهور القومية والديموقراطية وهذا العدل الاجتماعي الذي اتخذه الدكتور شعاراً له منذ زمان ؟

ولقد اثار الدكتور فضولي بتأكيده على القومية البنائية الايجابية في اكثر من موضع واحد من مذكرته فدفعني الى اعادة تلاوة مقال له في عدد من اعداد مجلة « المثنى » وقع بيدي قبل بضعة ايام واذا بي اكاد لا اصدق ان

صاحب ذلك المقال يمكن ان يكون صاحب هذا الكراس . فمن جملة ما قرره الدكتور في ذلك المقال إن « الاستعمار الحديث وهو بشكله العصري الحديث وليد القومية وهي تستخدم نتاج العلوم الطبيعية . » وان « المانيا تعد مثالا حياً ناطقا للوحدة القومية وكذلك قل عن ايطاليا » . ولكنني مع ذلك استحسنت من الدكتور هذا الاقبال الجديد على المعرفة فقد علم في بضعة اشهر ، على ما يبدو ، ما خفي عليه طوال حياته السابقة المفعمة بالدرس والمطالعة. ولكنه ، كسائر زملائه ، الذين تجلببوا بجلباب الاسلوب العلمي كان وفيا لآرائه الماضية من ناحية واحدة على الاقل ، فقد مجدّ الدمقراطية وهلل للقومية البنائية الايجابية ولكنه لم يقل كلمة واحدة عن النازية حتى ولا كلمة رثاء .

وقد جرى الدكتور في تفسير العلم على اصوله العرفية لولا هذه العبارة التي يروق له — كما يروق لسائر المثاليين — الترنم بها وهي « العلم للعلم » هذه الاغنية التي ان جاز لنفر شاذ ان يتخذها شعاراً له فلا يصح اتخاذها كقاعدة من قواعد التربية والتعليم التي يجب ان تقوم لغرض اعداد الناس لكسب المعيشة وتأدية الخدمات العامة والتوجيه الاجتماعي النافع . ولكنها المثالية مرة اخرى ، تحمل الناس على التجرد والتجزئة لتوقعهم في شباكها وتجعل منهم خداما للرجعية من حيث لا يعلمون . وانك لتلقى بعض رجال العلم وقد استهواهم هذا الشعار فاغمضوا عيونهم عن شؤون الحياة الا زاوية من زواياها حتى تحولوا الى خدام للشر وهم لا يعلمون فدنسوا حرمة العلم من حيث لا يشعرون .

ورأي الدكتور في الفن هو رأي المثاليين كذلك ، ولا يمكن ، طبعاً ، ان يكون غير ذلك . والفن في هذا الرأي لا يعبر عن الواقع ولا عن الآمال

والاماني المستمدة من الواقع ، وانما يجب « ان يكون الواسطة للاعراب عن العواطف الرفيعة الكامنة في الامة » وان يكون « من الوسائط التي تميز الامم بعضها عن بعض » وان يدخل على الحياة و يتغلغل — كما يقول الدكتور — في كل نواحيها فهو « الذي يوجد للحياة الانسانية طعما شهيا و رائحة ذكية اذ الحياة بالعلم وحده جامدة باردة لا طعم فيها ولا رائحة » . الفن اذن ليس من الحياة وانما هو دخيل عليها والحياة اذن نتنة وهذا العنصر الدخيل هو الذي يكسبها رائحة ذكية . والعلم اذن جامد بارد يجعل الحياة قفراء موحشة. تلك حقا آراء مخيفة لا اريد ان اطيل البحث فيما يمكن ان تؤدي اليه . لكنني أتسائل كيف يمكن الا توصلنا هذه الآراء الى الاقرار بتمايز الامم على رأي النازية ، ما دام هنالك عنصر لا صلة له بالمحيط المادي والحياة العامة حاضرها وماضيها يميز كل امة عن الاخرى . وهذا التفكير لا يمكن ان يؤدي بنا، على كل حال ، الى الدمقراطية ولا الى القومية الايجابية البنائية لأنه تفكير مثالي صرف وقد كان اعظم عون للنازية في تظليل الناس وتشوية الحقائق كما كان عونا للرجيعة في كل زمان ومكان.

***

بعد هذه المقدمة يواصل الدكتور بحثه فيقول :—

« على ضوء هذه المقدمة النظرية الوجيزة ها نحن اولاء نقترح الاسس الآتية لمستقبل التربية والتعليم. وهذه الاسس تتفق هي وماوضعته معظم الامم المتحدة الدمقراطية وفي مقدمتها بريطانيا العظمى للتربية والتعليم فيها » .

واول هذه الاسس هي « الاهتمام بالتربية الدينية » على شرط ان تكون

هذه التربية« بعيدة كل البعد عن النزعة الطائفية »وان« تكون تربية موحدة لا مفرقة ». اذن فالدكتور يخشى ان يكون في التربية الدينية نزعة طائفية. ترى هل شهد الدكتور شيئا من ذلك في المعارف التي بها اتصل خمسا وعشرين سنة ؟ على اني مهما كان جواب الدكتور فبودي ان اطمئنه بان الطائفية لا يمكن ان تقوم كحركة خطرة في عالم الغد لان صلتها بالعوامل السياسية والاقتصادية التي تقوّم الحياة العامه فعلا اخذت تتلاشى ، وان كان لها من اثر في الوقت الحاضر فانها تقوم كوسيلة يتخذها الانتهازيون الذين لايعنيهم غير الاصطياد باية شبكة صيد تيسرت لديهم ، لتحقيق اغراضهم ومطامعهم الشخصية ولجمع الثروة باستنزاف جهود الغير من نفس ابناء الطائفة التي ينتمون اليها والتي يتبا كون عليها بدموع التماسيح .

واذ يخشى الدكتور ان تكون التربية الدينية مفرقة لاموحدة فما هو التدبير الذي يقترحه لدفع هذا الخطر ؟ فان على الذين يضعون الخطط ان يحسبوا حساب التطبيق .

واما الاساس الثاني لخطة الدكتور في التربية والتعليم فهي التربية الاخلاقية التي « يجب ان تنشأ عن الروح الدينية بصورة عملية فعالة » وهذه الاخلاق هي على ثلاثة اصناف : يشمل الصنف الاول« عزة النفس والوقوف في جانب الحق والتمسك بقول الصدق والاستقامة في المعاملة والصبر على الشدائد وتحمل المسؤولية والاعتماد على النفس وحب الاقتحام وروح المغامرات» — ويبدو ان بديهة الدكتور وقفت عند هذا الحد والا لاستمر يضيف الى قائمة هذا الصنف الذي قد يصح ان نطلق عليه عنوان الاخلاق الروحية

لانه لم يعين له اسما . اما الصنف الثاني فهو صنف « الاخلاق العلمية كالتدقيق والضبط في القول والعمل » واخيراً « الاخلاق الاجتماعية كحب النظام والتعاون والثقة المتبادلة ومراعاة عواطف الآخرين والشعور معهم وحب خدمة المجموع والمحافظة على المواعيد » . فالاخلاق اذن ، على رأي الدكتور ، تقوم على ثالوث ولكنه يختلف بعض الاختلاف عن الثالوث الاول الذي تقوم عليه الفلسفة الاجتماعية لانه يتألف من الروح والعلم والمجتمع بينما كان الاول يقوم بالايمان والعلم والفن .

ويعقب هذين الاساسين سبعة اسس وهي على التوالي : « التربية الوطنية والقومية » و « التربية الدمقراطية » التي يجب ان يتعلم بها الطلاب انهم اخوة يشكلون اسرة واحدة وان كل فرد في المجتمع محترم له قيمته المعنوية مهما كانت ثروته ومهنته . و « التربية العلمية » و « التربية العملية الانتاجية » و « التربية الصحية » و « التربية الرياضية » و « التربية الفنية » .

ولتحقيق هذه الاهداف في مختلف اصناف التربية الآنفة الذكر يضع لنا الدكتور قائمة « يجب » . فيجب « اعتبار التربية والتعليم اهم واجب على عاتق الدولة » و « يجب ان يزداد نصيب المعارف من الميزانية العامة كما يجب ان يفكر في موارد جديدة لزيادة ميزانية المعارف ويجب عدم تبديل سياسة المعارف بل حتى شخص وزير المعارف » ويجب « زيادة كفاية المهيمنين على شؤون التعليم والقائمين بالارشاد التربوي » ويجب « اعتبار عملية التربية والتعليم تتناول اولاد الشعب جميعا ذكوراً واناثا على اختلاف اعمارهم من الطفولة حتى الشيخوخة » ويجب « الاخذ بمبدأ وحدة التعليم اي وحدة الاهداف

والروح التي تسود التربيـة والتعليم ». ويجب «الاخـذ بمبدأ المساواة في الفرص التعليمية للجميع ». ويجب «اسعاف ابناء الفقراء ولا سيما ابناء الريف الذين لا تساعدهم حالتهم المادية على متابعة التعليم وذلك بجعل التعليم مجانا لهم في جميع مراحله وتزويدهم لوازم الدراسة والغذاء والاحذية حتى الملابس اذا اقتضى الامر كما يجب ان تعد لابناء العشائر الرحل والقرى النائية الصغيرة الاقسام الداخلية وان تبنى لبعض المدارس حمامات وتزوّد صابونا ». واخيراً يجب «التعاون مع البلاد العربية في شؤون التربية والتعليم وتوحيد الاهداف معها» و«التعاون مع الامم الدمقراطية الحرة كافة وتبادل الاختبار معها».

«وبروح المبادىء التربوية والسياسية المذكورها اعلاه تسيّر المؤسسات والفعاليات التربوية الآتية » :—

(١) هيئة تصميم عليا من اشخاص لهم صفة ثابتة تضع التصاميم العامة في المشاريع كافة وفي جملتها خطط المعارف .

(٢) دور الامومـة — وهي تعنى بصحة الام قبل الولادة وبالطفل من يوم ولادته الى ما بعد السنة الثانية من العمر . وذلك طبعا، لاطفال الشعب كافة .

(٣) معاهد تربية الاطفال من السنة الثانية من العمر حتى السنة السادسة، لاولاد الشعب جميعا ذكوراً واناثا .

(٤) التربية الابتدائية — وهي لا تتناول تعليما عاما مجانيا فحسب وانما تتناول كذلك تزويد الطلاب (وهم جميع اولاد الشعب ذكوراً واناثا من سن السادسة الى تمام الثانية عشر) باللوازم المدرسية ووجبة طعام واحدة

في اليوم مجانا على الاقل وايضا تزويد المحتاجين بالأحذية والملابس .وهذا التعليم يشمل مدارس سيارة من العشائر و«مدارس ابتدائية ذات اقسام داخلية يجلب اليها ابناء العشائر الرحالة والفلاحين والعمال المتنقلين وايضا مدارس ابتدائية ذات اقسام داخلية في امهات القرى اي التي تحيط بها قرى صغيرة لا يمكن فتح مدرسة ابتدائية فيها».

(٥) التعليم الثانوي وهو على ستة اصناف : الدراسة الثانوية العلمية للبنين والبنات، والثانوية البيتية للبنات،والثانوية الصناعية والثانوية الزراعية والثانوية التجارية والثانوية العامة للبنين والبنات . وذلك طبعا لأبناء الشعب كافة ذكوراً واناثا .

(٦) المعاهد العالية . ويقول الدكتور بعد ربع قرن من اتصاله بمعارف العراق انتا«لا نستطيع ان ندعي بان في العراق اليوم معاهد عالية تستحق الذكر »واصلاح هذه المعاهد يتطلب اموراً عينها الدكتور .

(٧) البعثات . ويقول الدكتور انها يجب ان تستمر ولكن بناء على خبرته بمعارف العراق مدة ربع قرن فقد ثبتت له ضررة «التشديد التام في انتقاء الاعضاء بحيث لا يرسل الطالب الوسط او الضعيف باية حال من الاحوال» .

(٨) تعليم الراشدين . باعتباره من أهم الوسائط الفعالة لادامة الحياة الدمقراطية . وهذا التعليم يتناول صفوف مكافحة الامية التي تليها دراسة ابتدائية للواجبات الدينية والصحية والمدنية . ثم صفوف لمستوى الدراسة الثانوية في مختلف الفروع العلمية والصناعية والتجارية والزراعية

والفنون البيتية . وصفوف اللغات لا سيما العربية والانكليزية . ثم فوق هذا كله هنالك صفوف الدراســـات العالية »و«المؤسسات الريفية الشعبية»

(٩) ولم يحرم الدكتور من عطفه الشامل «المعيبين» وهم الذين نكبوا «بعاهة عقلية او جسمية بحيث لم يعد سويا كالاعمى والاصم والابكم والغبي» فانشأ لهم في مشروعه الهائل هــذا مدارس خاصة هي «مدارس القاصرين».

(١٠) وقد ذكر الدكتور طبعا كل ما يلزم لتهيئة المعلمين والمدرسين والاساتذة ولم ينس سوء حالهم في الخمس والعشرين سنة المنصرمة ففعل لهم ما فعله بجميع الاطفال والصبيان والاولاد والشبان والشيوخ والعميان والصم والبكم والاغبياء .

(١١) ولعل آخر ما يلفت النظر في مذكرة الدكتور ما قرره بخصوص الامتحانات العامة فقال « وكذلك وجب ضبط الامتحانات الحكومية ضبطا متقنا وصيانتها من كل عبث او تراخ . والا فالماكنة الثقافية للمملكة تنحل وتتلاشى كما تنحل الماكنة الاجتماعية والاقتصادية وتتلاشى وذلك من جراء السماح لغير الجديرين بالعبور » . واذا كان الدكتور يرى هــذه الخطورة للامتحانات بحيث ان اي تراخ فيها يؤدي الى تلاشي الماكنة الثقافية ومن ثم الاجتماعية والاقتصادية فماذا يقول وهو الذي ساهم — على اقل تقدير — بمسؤولية ادارة المعارف نيفا وعشرين سنة في الامتحانات التي جرت خلال تلك الفترة ؟ وماذا يقول ايضاً في ذلك الحادث الذي سجلت به درجات كل طالب باسم الطالب الذي يسبقه فكان ما كان من رسوب الناجحين ونجاح الراسبين ؟

و بعد ان ينوه الدكتور بضرورة تنظيم وانشاء الارشاد الفني ومنظمات الشباب والاذاعة والمكتبات العامة والصحافة والسينما كوسائل للتربية والتعليم و يشير الى لزوم تشجيع التأليف والترجمة والنشر والنوادي العلمية والثقافية يتناول التعاون الثقافي الذي هو في رأيه على نوعين : التعاون بين الاقطار العربية ، والتعاون بين الاقطار العربية وامم العالم الحر — ورحم الله فكرة التعاون مع المانية وايطالية ، الدولتين اللتين كانتا في يوم من الايام مبعث الوحي ومقياس القوة ومثار الاعجاب .

و بصدد التعاون بين الاقطار العربية يقول الدكتور « ولا بد انا ونحن (الدكتور الجمالي) من اول الداعين الى الاتحاد والتعاون الثقافيين بين البلاد العربية من ذكر كلمة تحذير لا بد منها للذين يفسرون التعاون الثقافي باستسلام ثقافه قطر للقطر الآخر» .فماذا يعني الدكتور بهذه العبارة الغامضة؟ ايعني ان هنالك قطراً من الاقطار العربية يريد بالتعاون الثقافي ان يفرض ارادته؟ وماهي ارادته؟ أهي توحيد الثقافة أم السيطرة السياسية والاجتماعية ؟ ان عهدنا بالدكتور انه من القوميين الغلاة فهل قوله هذا تراجع ؟ وهل لايخشى ان يغضب بهذا القول رفاقه الاول فيضعونه في صف الاقليميين الهدامين ؟ وهذا القول ، فوق هذا ، لا يلتئم والروح القومي الذي عهدناه في الدكتور اذ هو يعتبر ان لكل قومية خصائص ومميزات اصلية فكيف اذن يخشى ان يسيطر قطر على قطر ثقافيا في ضمن كل لا يمكن ان يتجزأ ؟ ام هل انه صار الآن يعتقد ان الخصائص القومية تتجزأ فتصبح اقليمية. وانها فوق ذلك تتأثر بمؤثرات مادية كالبيئة والموقع والخصائص الاقتصادية والتاريخية ؟وماذا

يقصد بالاستسلام في هذا المقام ؟ أيقصد به ان يكون النظام الثقافي لقطر ما صورة طبق الاصل لنظام الثقافة في القطر الآخر من دون مراعاة الظروف السياسية والاقتصادية والجغرافية والاجتماعية بوجه عام ؟ وهل ذلك ممكن من دون زوال العوامل السياسية والاقتصادية والمؤثرات المادية الاخرى ؟

***

والآن فلنناقش خطة الدكتور بوجه عام ، بعد ان قررنا انها خطة مثالية . ان عيب الخطط المثالية الاول انها غير قابلة للتطبيق وهي بهذا الاعتبار تؤدي الى بالغ الضرر لانها تكون مضيعة للجهود على الاقل . وان تضمنت ما يبدو انه صالح فهي لا تضمن ما يهيء له اسباب النجاح .

وقد كان العيب في خطة الدكتور من هذه الناحية واضحا. فلست ازعم ان الدكتور لم يتناول في خطته كثيراً مما يجب تحقيقه وما هو لازم لنا كأمة تنشد الحياة ، ولكنه — وباعترافه — اعتمد على مطالعاته في « مئات من الكتب والتقارير » ومشاهدة نظم التعليم في شتى الممالك دون ان يلاحظ الدور التاريخي والنظام العام لتلك الممالك ويراعي الوضع التاريخي الذي يجتازه العراق وكيانه الاقتصادي والاجتماعي الراهن . ولقد اشار الدكتور الى ان خطته كانت كذلك ثمرة اتصاله « بمعارف العراق مدة خمس وعشرين سنة » ولكن اثر ذلك الاتصال كان ضئيلا على ما يبدو ، لأن الدكتور كما ارى ، لم يستفد كثيراً مما انتاب خطط المعارف من الفشل وما احاط بها من المشاكل فجاءت مقترحاته وكأنها في الواقع رد فعل لخيبة الأمل او كحلم اليقظة لخسران مزمن .

وان الدكتور فوق ما اعتمد عليه من مئات الكتب والمشاهدات والاتصال بالمعارف زهاء ربع قرن ، اعتمد ايضا — كما يقول — على «وجهة نظر شخصية في قضايا التربية والتعليم في هذا البلد .» فكأنه بهذا يقرر ان وجهة النظر في التربية والتعليم يمكن ان تكون مجردة عن الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في هذا البلد في الوقت الحاضر ، تلك الاوضاع التي ، بتفاعلها في الواقع ، يتقرر المستقبل على أي حال .

وقد كان احرى بالدكتور ان يعلم ان حمل وجهة نظر في قضايا التربية والتعليم امر لا يمكن ان ينفصل عن وجهة النظر في الشؤون الاجتماعية والقضايا العامة باعتبارها وحدة لا تتجزأ فباستطاعة المرء ان يكون دمقراطيا او رجعيا بوجه عام ، لكنه لا يستطيع ان يحمل وجهة نظر في التربية والتعليم من دون ان يتخذ مبدءاً عاما من حيث الاساس . لكن المثالية ورطت الدكتور على ما يظهر ، فتوهم ان المرء يستطيع ان يختص بالتربية من دون ان يكون هذا الاختصاص متصلا بمبدأ اجتماعي معين او بوجهة نظر عامة في الحياة .

واننا لنجد من صنف الدكتور شبانا آخرين وقعوا في عين ما وقع فيه من الخطأ ، فتراهم يزعمون ان لا شأن لهم بالمبادىء الاجتماعية المتعارضة لانهم يفضلون الانصراف الى العلم وحده و يعنون باختصاصاتهم لا غير . ومثل هذا الزعم لا يبتلى به في الحقيقة غير المثاليين . وهم اذا قالوا به فلا يستطيعون التزامه فعلا وانما يتخذونه في الغالب ستاراً لآراء يخشون اعلانها او تملصا من واجبات ومسؤوليات اجتماعية فرضت عليهم كمثقفين لينصرفوا الى حصر جهودهم بما يعود عليهم بالنفع الخاص ، او طمعا باستمالة الرجعية التي يسرها

ان تجد فيهم آلات مفكرة عاملة ولكن بدون ايمان لتسخرهم لاغراضها ولتتخذ منهم مطية لتحقيق مآربها . والاختصاص بهذا المعنى هو كمبدأ «العلم للعلم» الذي اشرنا اليه . وان كان الواقع يثبت بان العلم لا من حيث منشأه ولا من حيث تحقيقاته واهدافه يمكن ان يكون مستقلا عن خدمة المجتمع واهدافه . فهو انما وجد لخدمة الناس . والعالم اذا اكتشف حقيقة ما فقد اكتشفها، على وجه التأكيد ، بفضل المقدمات التي اعدتها له جهود السلف من بني الانسانية و بدافع الحاجة الملحة التي انبعثت عن المجتمع . ولهذا كان المجتمع ، في الواقع ، هو الذي يمهد السبيل وهو الذي يعين الحاجة و يقرر الهدف وله على كل عالم دين يجب ان يفيه اذا كان مخلصا حقا للعلم وللحقيقة . ولا يقول غير المثاليين بوجود حقيقة للحقيقة مستقلة عن الزمان والمكان ، او علم للعلم مستقل عن خدمة الانسان او فن للفن مستقل عن التعبير عن الحياة وامانيها في زمان ومكان معينين . وهم في قولهم هذا يخدمون الرجعية ويضرون بالحياة العامة من حيث يدرون اولا يدرون .

ولو لاحظ الدكتور صلة خطة التربية والتعليم بالدور التاريخي الذي يجب ان تقوم فيه ، وضرورة مسايرتها للاوضاع الاقتصادية والسياسية بوجه خاص ، تلك الاوضاع التي تقرر سياسة التربية والتعليم بمقتضى حاجتها وكفايتها واهدافها، ولو اخذ بنظر الاعتبار ايضا تاريخ تطور التربية والتعليم من حيث الاسس وسعة النطاق والاساليب والاهداف . اذن لرأى ان كل خطة صحيحة يجب ان تقوم على ضوء الواقع لا الخيال وان الذي ينشد اهدافا معينة في التربية والتعليم عليه ان يحسب في الوقت عينه حساب الاوضاع

التي تناقض مقتضيات الخطة التي يدعو اليها .

فان كل سياسة في التربية والتعليم انما تساير وتؤيد الاوضاع الاقتصادية والسياسية التي تنسجم معها ، ولهذا كان من الخطأ ان نتوهم بان في استطاعتنا ان نلتقط الفكر والاساليب من اوضاع اجتماعية متناقضة ونستمد الخطط من خليط من المباديء السياسية او من ادوار تاريخية بلغتها الامم التي تقدمتنا من غير ان نحاول اجتياز المراحل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي سبقتنا اليها تلك الامم .

وعلى هذا فان المباديء التي اخذ بها الدكتور في خطته والنظم التربوية التي اقترحها على اساس تلك المباديء والمؤسسات التعليمية التي اشار والتي تعهدت تعليم الناس من المهد الى اللحد على الوجه الذي يتوق اليه ، انما تحقق الكثير منها بفضل تطورات اجتماعية اخرى اوجبت الاخذ بها لانها اوجدت الضرورة اليها وخلقت الطاقة المادية والفنية اللازمة لها .

لا شك في ان اغلب الامور التي اشار اليها الدكتور في خطته قد تحققت لكثير من الامم ، فهي اذن ليست مستحيلة التحقيق ، على انها لم تكن ممكنة التحقيق الا في الحالات التي بلغتها تلك الامم في مضمار التقدم الاقتصادي والسياسي بوجه عام . والدكتور الجمالي لم يتجنب الاشارة الى ضرورة تحقيق التطور الاجتماعي الذي يستلزمه تحقيق خطته فحسب وانما ذكر ما يدل على انه يرى امكان تحقيق هذه الخطة مع الاحتفاظ باوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية الراهنة . فلم يذكر الضرورة الى ازالة سلطان الاقطاع

وتحقيق التقدم الاقتصادي الصناعي وتحويل الحياة القبلية والبدوية الى حياة مدنية مستقرة وانما اقترح تأسيس المدارس للقبائل وللبدو . واشار الى امكان فسح مجال التعليم للجميع وبمختلف اصنافه على اساس المساواة للفقير والغني ولابن الشيخ والفلاح على السواء من غير ان يدرك ان ذلك امر غير ممكن التحقيق في حدود التفاوت القائم في توزيع الثروة وفي نظام الانتاج بشكله الراهن في العراق . ولم يخطر بباله ان هذا المشروع الهائل الذي وضع تفاصيله لا يمكن انجازه بزيادة نصيب المعارف في الميزانية بارقامها الحاضرة وبفرض الضرائب في حدود النظام الاقتصادي السائد وانما يشترط مبدئيا اجراء انقلاب اقتصادي صناعي يزيد في الثروة العامة ويضاعف الانتاج العام ويحرر قوى العمل ويرفع مستوى الحياة ويفرض الكفايات الفنية التي تقتضيها هذه الحياة . لكنه ذكر من الجهة الاخرى امورا تبدو بعيدة عن جوهر الموضوع كاشتراط بقاء وزير المعارف كعضو ثابت لا يتبدل بتبدل الوزارات، وزيادة كفاية الموظفين الفنيين في وزارة المعارف . وكأنه يريد ان يقول بانهم يجب ان يكونوا ممن درسن مئات الكتب وشاهد عشرات الممالك وتهيء للعمل بمرونة الماء القراح .

ان خطة الدكتور، بهذا الاعتبار، تقوم على رأسها وتعاكس المنطق الواقعي . فصحيح ان عامل التربية والتعليم ذو اثر لاينكر في تيسير اسباب التقدم الاجتماعي لكنه من الجهة الثانية مقيد في حدود الضرورات والامكانيات والاتجاهات الاجتماعية بوجه عام . فان كان الدكتور قد تصور ان في المستطاع تحقيق التقدم الاجتماعي باساليب في التربية والتعليم مقتبسة

عن ارقى الامم ، فهو في هذا ككل مثالي حين يزعم ان الوجود اساسه الفكر، يخالف ما يثبته لنا التحليل العلمي الواقعي لشؤون المجتمعات من ان مجال وخطط التربية والتعليم تجاري وتؤيد التطورات الاقتصادية بالدرجة الاولى فهي لهذا نتيجة لها وسبب من اسباب تقدمها في الوقت عينه .

ولعل مما ييسر لنا اختصار البحث ويفي بغرضنا في الكشف عن مواطن الضعف فى خطة الدكتور الجمالي اتخاذ التعليم الاجباري العام مثلا لايضاح علاقة خطط التربية والتعليم بالتطورات الاقتصادية والسياسية .

اننا امة تريد ان تحيا حياة حرة تتوافر فيها اسباب الدمقراطية وضرورتها والتعليم الاجباري المجاني العام هو اليوم ضرورة لا مناص من تحقيقها لضمان حرية الامة وتقويم الدمقراطية . فماذا يجب ان يتوافر لدينا لتحقيق هذا المشروع ؟ هل في المستطاع تحقيقه من دون اجراء تحوير في النظام الاقتصادي بحيث تجتمع الضرورة الى تحقيقه بالامكانيات التي يتطلبها انجازه بحال من الاحوال ؟ هل ان تحقيق هذا المشروع ممكن من غير ان يكون النظام السياسي المستند مبدئيا الى النظام الاقتصادي بشكل يصبح فيه التعليم العام من مستلزماته الاساسية ؟ وهل ان التطور الاقتصادي والسياسي يجب ان يتجه عموما وجهة خاصة ليجعل التعليم العام امراً ضروريا وممكن التحقيق في الوقت عينه ؟ .

ان لدينا لحسن الحظ امثلة تغنينا عن الركون الى الحدس والتخمين في الاجابة على هذه الاسئلة . فنحن نجد في حياة الامم الاوربية وفي تاريخها الحديث ما يكشف لنا عن العوامل التي كانت عونا لها في معالجة المشاكل

التي واجهتها وفي جملتها قضية التعليم العام.

فتاريخ حركة التعليم العام في اوربا يرينا بجلاء صلتها الوطيدة بحركة الاصلاح الديني وقيام البروتستانتية من جهة و بتطور الحركتين القومية والدمقراطية من جهة اخرى . فماذا تمثل لنا هذه الحركات الاجتماعية ؟ انها تمثل لنا في جوهرها مظاهر طور جديد نشأ عن انتعاش التجارة ونشوء الصناعة في المدن الاوربية وما تولد عن ذلك من النشاط الفكري والعلمي وظهور طبقة جديدة كانت وليدة هذا الطور الجديد وحاملة لواء الزعامة فيه في الوقت عينه وهي الطبقة الوسطى من النجار والصناع وارباب الحرف ورجال الاعمال والصناعات من ابناء المدن التي حملت لواء التقدم ضد الاقطاع وحلفائه من رجال الكنيسة فعملت على تحرير المعتقدات من عبودية الطقوس واطلقت للفكر مجال الحرية وساعدت الملوك على توطيد سلطان الحكومات المركزية وحملتهم بعد ذلك على مشاركتها في الحكم ورفعت لواء القومية والدمقراطية في مسعاها لتحقيق مصالحها وتوسيع نفوذها . وقد كانت الثورة الصناعية اكبر عون لهذه الطبقة في انجاز مهمتها التاريخية وكان لها في انجاز هذه الثورة وتوطيد اركانها شأن عظيم .

وانا لنجد هذه الطبقة التي حملت مشعل الثورة الفرنسية اول من يقرر في دستور سنة ١٧٩١ ان يكون التعليم الابتدائي العام اجباريا مجانيا . ونراها في انكلترة تسند حركة نشر التعليم منذ ظهورها في عهد هنري الثامن وتخطو في سبيل توسيع التعليم خطوات جريئة عند ما بلغت قوتها الاوج في ميدان التطور الصناعي الرأسمالي منذ عام ١٨٧٠ ، فتقرر في ذلك العام ان

تضاعف اعتمادات مساعدة التعليم وتقرر وضعه تحت اشراف الدولة منذ عام ١٨٧٦ ، وتسن قانونا يفرض على الآباء ارسال اولادهم الى المدارس ويمنع اصحاب المعامل من استخدام الاولاد عموما قبل سن العاشرة ويمنعهم من استخدام الذين لم يتموا الدراسة الابتدائية قبل سن الرابعة عشر . ونرى ان عدد الاولاد الذين يداومون في المدارس يبلغ المليونين في عام ١٨٧٠ و يبلغ الاربعة ملايين في ١٨٨١ فيصبح عدد الذين يداومون في المدارس بنسبة (١٠٫٦٩) في المائة من مجموع السكان . وما كان ليتسنى لانكلترا احراز هذا التقدم في التعليم لو لم تكن اسبق الامم في التحرير من عبودية الاقطاع ولو لم تكن في طليعة الامم في مضمار التقدم الاقتصادي .

فاعلان مبدأ التعليم الابتدائي الاجباري المجاني العام في دستور الثورة الفرنسية ، وتاريخ انتشار التعليم في انكلترة وسائر الممالك الاوربية يدل دلالة صريحة على انه كان نتيجة من نتائج غلبة الحياة المدنية على الاقطاع ومظهراً من مظاهر الثورة الصناعية التي كان لها اعظم الاثر في نشوء الحركتين القومية والدمقراطية ورفع الطبقة الوسطى الى مقام القيادة في الحياة العامة . وقد كانت هذه الطبقة آنذاك تقدمية بحكم مصالحها فعمدت الى اجتذاب الجماهير الى جانبها والعمل على ترقية شؤونهم المادية والثقافية ليكونوا عونا لها ضد الطبقات الرجعية واكثر نفعا في تحقيق مصالحها الاقتصادية .

ومن كل هذا يتبين لنا ان انتشار التعليم العام من حيث الاصل صحب التقدم الاقتصادي الصناعي الذي اوجد الضرورة اليه ويسر له اسباب التحقيق . ولا يصح العكس اي انه لا يصح القول — بامكان تحقيق التطور

الاجتماعي او الاقتصادي بخطة للتعليم تقوم على مسايرة الاقطاع والبداوة كما هو الحال في خطة الدكتور الجمالي .

فالواقع، ان الرغبة في نشر التعليم لم تنشأ بقيام مفكرين مثاليين غلبت عليهم روح الانسانية فساءهم ان يشهدوا « في الحياة البشرية من التعاسة والبشاعة ما يجعلها دون المستوى الحيواني » كما يقول الدكتور الجمالي ، بل ان هذه الرغبة تولدت عن تطور اقتصادي صناعي كان التقدم الميكانيكي من جملة اركانه فساعد على قلب حياة القرون الوسطى رأسا على عقب فشرد الاقطاعيين ونسف قلاعهم المنيعة وبدد الظلمات التي خيمت على الريف الاوربي زهاء الف سنة وساعد في انشاء المدن الجديدة التي احاطت بها المعامل النامية المتسعة والتي اصبحت محج الفلاحين من اطراف البلاد يقصدونها حفاة عراة جهالا يحملون اليها بضاعتهم الوحيدة وهي قوة العمل . في هذه الحياة الجديدة اجتمعت القدرة على نشر التعليم بالضرورة اليه لاول مرة .

اما الحاجة الى التعليم فلم تكن، على وجه التأكيد، وليدة الآراء المثالية وانما الواقع هو الذي اوجدها ورسم خططها الفكرية. فقد ادرك رجال الاعمال واصحاب رؤوس الاموال من ابناء الطبقة الوسطى ان تعليم العمال يزيد في قدرتهم الانتاجية فراحوا يعملون على نشر التعليم ويمدونه بالمال . ورأى العمال من جانبهم ان التعليم يعينهم في الحصول على العمل وفي تيسير العمل ويزيد في مدخولهم الضئيل لانه يزيد في مهارتهم ، فاقبلوا عليه وساندوا الطبقة الوسطى على العمل في سبيله. وقد كان للتقدم الصناعي الآلي فوق

ذلك تأثير عميق في نفوس هؤلاء العراة الحفاة الجهال فتبددت من رؤوسهم اوهام الريف ووقفوا على ابواب العالم الجديد والاستغلال يحز في قلوبهم ، ينظرون الى الحياة نظرة جديدة اختلط فيها الوعي والتبرم والطموح .

والى جنب ذلك كان التقدم الاقتصادي الصناعي القائم على التقدم العلمي ينشيء اسساً جديدة في كل نواحي الحياة فساعد في تزايد السكان من جهة وفي تزايد الثروة العامة من جهة اخرى واوجد ضرورات جديدة تحورت بمقتضاها وظائف الدولة واساليب الحكم ومقتضيات التشريع ومفاهيم الحقوق والواجبات وتزعزعت بتأثيرها اصول العادات والتقاليد البالية السقيمة التي تحكمت بحياة الناس قروناً طويلة ، وهيأت مجالا واسعا للاعمال الفنية وللعدد الكبير المتزايد من خريجي المدارس على اختلاف اصنافهم واختصاصاتهم .

وليس بخاف ان هنالك في كل مجتمع سياسة خاصة للتربية والتعليم تلائم مقتضيات النظام القائم من جهة وتجاري ، من جهة اخرى ، امكانيات المجتمع الاقتصادية وضرورات الحياة المادية . ففي المجتمعات التي تتسع فيها الفوارق الاقتصادية والاجتماعية يكون من مستلزمات النظام حرمان الناس من حق التعليم او حصره في نطاق ضيق . وفي المجتمعات التي تجتمع فيها الضرورة الى التعليم بخشية الطبقة الحاكمة من خطر انتشاره — كما هو الحال في ظل النازية — تعمد الطبقة الحاكمة الى ضبطه بشكل معين حسب نظام « التوحيد في التربية والتعليم » لتتجنب الخطر من انتشاره . ولا يترك التعليم حراً ولا يفسح للافراد مجال الحصول عليه بحسب مايتوافر لديهم من المواهب والملكات ، ولا يتجه هذا التعليم نحو تهيئة الاسباب للافراد لبلوغ الدرجة

التي تتكامل فيها شخصيتهم الا في ظل الدمقراطية حيث تتجه الحياة العامة بكاملها نحو تسوية الفروق المادية بين الافراد .

كما ان مجال انتشار التعليم واتساع نطاقه يتوقف على درجة صلته باسباب المعيشة ووسائلها ودرجة الضرورة اليه في حياة الافراد . ولهذا ترى ان التعليم لم يقم ولم تتهيأ له اسباب الانتشار الا في المجتمعات المدنية التي تحقق لها من التقدم الاقتصادي الصناعي ما جعل التعليم ضرورة عامة وفردية معاً . فالتعليم العام في الاقطاع مثلا لا ينسجم مع طبيعة النظام من جهة ولا يكون من الجهة الاخرى ضرورة من ضرورات الحياة ، لان الفلاح الذي قد تساوى قيمته في الاقطاع قيمة الدابة وهو يزرع الارض بالوسائل الابتدائية وعلى اساليب الفطرة ، لا يرى ما يحمله على ارسال ابنه الى المدرسة مادام ولده يكون عونا له في تحصيل الكفاف وهو يستطيع ان يخلفه في عمل قد يتقنه بالممارسة خيراً مما يتقنه في المدرسة . والانتاج في الاقطاع ، فضلا عن ذلك ، يخنق الثروة العامة فلا يساعد على نموها وتزايدها بمثل ماتنمو وتتزايد في النظام الصناعي . فهو من هذه الناحية كذلك لا يهيء الامكانيات المادية التي يتطلبها نشر التعليم . وماذا نستطيع ان نستنتج من كل ذلك ؟

نستطيع ان نستنتج اولا ، ان التعليم العام لا يمكن ان يتحقق اذا لم يجار تطوراً اقتصاديا يجعله من ضرورات الحياة العامة ويهيء الامكانيات المادية لتحقيقه .

وثانيا ، ان التعليم العام مظهر من مظاهر الحياة المدنية ولا مجال له حيث تسود الحياة الريفية الابتدائية وحيث يقوم الانتاج بالاساليب الفطرية . وان تبديل اسس هذه الحياة التي لا تتفق والحضارة الاجتماعية القائمة انما

يتحقق بتحوير النظام الاقتصادي في الدرجة الاولى .

وثالثا ، ان الاخذ بنظام التعليم العام يشترط اتخاذ وجهة قومية ديمقراطية في السياسة العامة .

وتحقيق هذه الشروط الاساسية تتصل اتصالا وثيقا بزوال معالم الاقطاع و بقيام نظام زراعي يضمن تحرير الفلاح وترقية شأنه والاعتماد على الزراعة الآلية ، كما يتصل بقيام نظام اقتصادي صناعي يساعد على نمو الثروة العامة ويحرر قوى الانتاج بحيث يتوافر لمشروع تعميم التعليم ما يقتضي له من النفقات ، كما انه يتصل مبدئيا باتخاذ اتجاه ديمقراطي يقرر فيه ان مبدأ التعليم العام المجاني هو من المشاريع التي لا مفسر للدولة من انجازها باعتبارها من الاسس التي تقوم بها القومية والديمقراطية وتتوطد بها اصول الحياة العامة .

وهكذا يتبين لنا من مناقشة موضوع التعليم الابتدائي العام الذي هو جزء من مشروع جسيم في خطة الدكتور ان تفكيره المثالي يبدو بالنسبة للواقع تفكيراً معكوساً ، لانه لا يهمل الاوليات والمقدمات التي تشترطها كل خطة عملية قابلة للتحقيق فحسب بل يجعل هذه المقدمات والاوليات بمقام النتائج والثمرات ، ويذهب الى اكثر من ذلك فيفرض امكان قيام مباديء خطته الخيالية الى جانب اضدادها ومناقضاتها من غير ان يحسب حسابا لضرورة التغلب على الاضداد وازالة المناقضات التي تعرقل تحقيق الخطة بوجه عام .

وكم كان حريا بالدكتور ان يعتبر بالمشاكل التي واجهتها ولا تزال تواجهها المعارف في اداء مهمتها . وكم كان حريا به ايضا وهو — الخبير كما يقول في شؤون التربية والتعليم — ان يأخذ بنظر الاعتبار الضرورات المادية التي

يقتضيها تطبيق خطته الواسعة فلا يبسطها بشكل تبدو فيه واهية كأن يتصوران الامر لا يتطلب غير زيادة في اعتمادات المعارف في الميزانية وغير اجراءآت ظاهرية لا تتصل في الحقيقة بجوهر الموضوع .

ان المعارف تواجه في الواقع مشاكل أساسية ، وان التفكير المثالي الذي عبر عنه الدكتور الجمالي في مذكرته والذي كان الغالب في معالجة هذه المشاكل ، لم يفشل فشلا ذريعا في اداء المهمة الخطيرة المناطة بادارة المعارف وانما قد زادها في الواقع تعقيداً وارتباكا و بدد جهوداً كانت تعود بالنفع الاكيد لو انها وجهت توجيها واقعياً .

فلماذا نرى مثلا فكرة خطرة مثل هذه تتردد في بعض الاوساط وهي ان التوسع في التعليم يؤدي الى زيادة المتعلمين العاطلين ويؤول بالتالي الى اثارة المشاكل في البلاد ؟ لاريب ان هذه الاوساط الرجعية التي تردد مثل هذه الفكرة بقصد ترويجها هي المسؤولة في الدرجة الاولى عن ذلك لانها كانت ولا تزال عاملا فعالا في عرقلة التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي يهيء للبلاد سبل الانتفاع بالعدد المتزايد من المتعلمين . اليس غريبا ان تدور في بعض الاذهان مثل هذه الفكرة الخطرة في حين ان البلاد لا تزال في مستهل حياتها العمرانية وهي احوج ما تكون الى العدد المتزايد من المتعلمين على اختلاف صنوفهم ؟ اليس قبيحا ان تتردد هذه الفكرة في بلد لا تزيد نسبة المتعلمين فيه عن بضعة آحاد في المائة من مجموع سكانه الذين تغمرهم الامية ؟ ومع ذلك يستطيع هؤلاء ان يروجوا لفكرتهم ويدللوا عليها بالادلة التي قد تبدو مقنعة ويجدوا لآرائهم آذانا

صاغية . لماذا ؟ لأن التوجيه المثالي صور للناس امكان توسيع المعارف دون ان يبين ضرورة الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التي تهيء السبيل لاطراد التوسع في التعليم فلا تقوم بوجهه العقبات الكأداء التي تجابهه في الوقت الحاضر ، فقام التعليم من غير ان يساير تقدما اجتماعيا واقتصاديا لازما لضمان اطراد تقدمه .

ولهذا السبب عينه رأينا وزارة المعارف اضطرت ان تلغى مدارس انشأتها وتغلق ابواب مدارس اخرى لانها لم تلق الاقبال المطلوب بالرغم من انها مدارس اولية مؤلفة من صفين او ثلاثة صفوف .

وربما بدت مظاهر هذه المعضلة بشكل اوضح في تعليمنا الفني . فمدارس الصناعة لم تلق ما يجب ان تلقاه من التشجيع ، ومتخرجوها لم يجدوا العمل الذي اعدوا له على قلة عددهم ، فتركوا اختصاصهم وانصرفوا يتشبثون بوظائف الكتابة او التعليم . وقد حصل مثل هذا ولبعض الذين درسوا فنون الزراعة والهندسة ونحوها في الخارج ، فتراهم الآن يقومون بوظائف تعليم او وظائف كتابية لا تستلزم اختصاصهم . فما هو السبب في ذلك ؟ السبب ان التقدم الاقتصادي والصناعي في البلاد لم يتحقق منه ما يضمن المجال لتقدم مدارس الفنون ، وان الاعمال لا تزال تفضل الذين يتعلمون بسائطها بالممارسة على الذين يتقنون دقائقها في المدارس الصناعية والجامعات .

ولولا شعوري بان هذا البحث قد طال لخرج عن حدود الاختصار لأوضحت منه جوانب اخرى تكشف عن اخطار هذه الآراء المثالية وعقم الحلول التي تتوصل اليها ، ولكنني ارى ان اكتفي بهذا القدر واختم كلمتي

بان اقول الى الدكتور الجمالي بان بحثه عن مستقبل التربية والتعليم كان ويالاسف بحثا عقيما من وجوه كثيرة . لانه اهمل معالجة المشاكل الاساسية كوحدة متلازمة اجتماعيا وانصرف الى ذكر التفاصيل التافهة التي يمكن ان يبت فيها على وجه من الوجوه في كل حين . والمرء حين يبحث في خطط للمستقبل فانه لايبحث فيها كمتنبىء وانما يبحث فيها من حيث امكان تحقيقها بالفعل فيكون من واجبه ايضاح ما يقتضي لتحقيقها من العوامل والتدابير . فالمستقبل كما يعلم الدكتور لن يخرج الينا من جوف الارض ولن يهبط الينا من السماء بل انه سيكون من صنع ايدينا على كل حال .

على انني ارى في الاخير، ان اعتذر الى المثالية والمثاليين بكلمة واحدة فقد ناقشت الدكتور الجمالي كمثالي وانا اشعر ان حشره في زمرة المثاليين قد يغيضهم ويغمط حق كثير من المفكرين الذين كان لهم شأن في تاريخ الفكر الانساني لا يمكن ان ينكر فضله واثره . وانه كان الاحرى بي — كما لابد ان يرى كل مدقق في آراء الدكتور واعماله — ان اقول بان الحيرة اولى به من المثالية فهو اليها اقرب .

وكلمة اخرى الى سائر القراء . ان كثيراً من الناس — كما يبدو — لا يميزون بين المثالية وبين ان يكون للمرء مثل عليا يسعى الى تحقيقها في سبيل الخير العام. على ان البون بين المثالية والمثل العليا ظاهر . فلكل انسان واع مثل عليا يعمل على تحقيقها، لكن هذه المثل لا تنبعث عن الاوهام والاماني الخيالية او الانتهازية كما في المثالية ،وانما مبعثها الواقع تستمد منه عناصرها الفكرية والعملية ،ومآلها تبديل هذا الواقع او تحويره الى مافيه الخير العام .

للمؤلف

	فلس (نقد)
مقدمة في الاجتماع	١٥٠
على طريق الهند	٦٠
حقيقة الفاشية	١٠
كلمة في المنهج القومي	١٥
مشكلة التموين	١٢
كلمة في وجهة المجتمع بعد الحرب	٣٠
تعليق على « مذكرة في مستقبل التربية والتعليم في العراق »	

تطلب هذه المؤلفات وكافة المنشورات الرصفر الطبعة من : —

مكتبة بغداد

شارع الرشيد — بناية سوق الامانة — رقم التلفون ٥٨١

مطبعة السريان تلفون: ٢٠٨١

DATE DUE

370.9567:J27mtA:c.1
الجمالي، محمد فاضل
تعليق على مذكرة في مستقبل التربية و
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01022025
370.9567
J27mtA